تجليات في الوحدة والاشتراكيّة

الوحدة العربيّة

الوحدة العربيّة أمنية غالية على قلب كلّ عربيّ مخلص، وأنشودة عذبة على لسانه، وتفكير عميق مستحوذ على عقله وإدراكه. وكلّ أمّة تستجمع عناصر قوميّتها، تنشد لنفسها الوحدة التامّة الشاملة بين جميع شعوبها والحياة المشتركة فيما بين هذه الشعوب دعما لكيانها وتقوية لدولتها، وازدهارا لاقتصادها وإنماء لثروتها.

والأمّة العربيّة في حقيقة واقعها التاريخيّ، وتراثها القوميّ، ولغتها الشاملة وشعورها المشترك لآلامها وآمالها، هي أمّة واحدة ذات قوميّة واحدة تستجمع العناصر الأساسيّة لتقرير وحدتها بالاستناد إليها.

وعندما فكّر أحرار العرب، مسلمون ومسيحيّون، في أواخر القرن التاسع عشر وفي ظلّ الحكم العثمانيّ، بعروبتهم وقوميّتهم وجمع شملهم والمطالبة بحقوقهم، فكّروا بذات الوقت بوحدتهم بمختلف أقطارهم ضمن تنظيم سياسيّ موحّد وتحت لواء واحد وعلم واحد.

وعندما أسّسوا المنتدى العربيّ في الأستانة، كانوا ينتمون لأقطار عربيّة مختلفة، وأديان مختلفة، ولكنّهم كانوا كتلة عربيّة واحدة متراصّة في سبيل تشييد كيان واحد لهم.

ويوم عقدوا مؤتمرهم العربيّ في باريس عام ١٩١٣، أقاموا الدولة العثمانيّة وأقعدوها، واضطرّوها لعقد اتّفاقيّة معهم تحافظ فيها على حقوق العرب، كلّ العرب، دون تخصيص أو تفريق بين قطر وقطر أو بين دين ودين.

وعندما أعدم جمال باشا التركيّ العثمانيّ رجالات العرب الأحرار، كان هؤلاء ينتمون إلى أقطار عربيّة مختلفة وإلى أديان متعدّدة، وقد أعدموا في سبيل هدف واحد هو تأسيس كيان عربيّ موحّد.

والثورة العربيّة الكبرى ضدّ الدولة العثمانيّة، إنّما قام بها رجالات العرب على اختلاف أقطارهم وأديانهم برعاية وزعامة الرجل العربيّ العظيم شريف مكّة الحسين بن عليّ وأنجاله الأمراء، طيّب الله ثراهم، ينادون بدولة عربيّة واحدة تجمع شمل جميع العرب، لا فرق فيهم بين قطر وقطر وبين دين ودين.

لكنّ السياسة الساخرة تعبث بالشعوب الضعيفة وتلهو بها، فهي لا تعرف ذمّة ولا ترعى عهدا. فلم تكتف بالحيلولة دون تمكين العرب من تأسيس دولتهم الموحّدة وجمع شملهم المبعثر، بل عملت على تمزيق صفوفهم وتشتيت شملهم وتقسيمهم إلى دويلات إقليميّة صغيرة، وضعت معظمها تحت سلطة الدول العظمى التي خرجت من الحرب العالميّة الأولى منتصرة، بعد أن قضت على الدولة العثمانيّة ومزّقتها إربا، ثمّ أشعلت الفتن والمنازعات بين الدول العربيّة الأخرى شبه المستقلّة لتبقى ملتجأة إليها وتحت رحمتها.

دام الحال على هذا المنوال، والشعوب العربيّة تئنّ وتتكوّى وتقاسي الأمرّين، وهي في حالة غليان واضطراب وانتفاضات وثورات، إلى أن دار الزمان دورته وهيّأ لها الانفراج بمؤازرة الغير، فنزعت عن كاهلها نير الذلّ والانتداب، وأعلنت استقلالها.

إنّ فكرة الوحدة طالما تغنّينا بها. وكانت ولا تزال الأمنية الغالية على قلب كلّ عربيّ مخلص، حتّى أنّ كثيرا من الدول العربيّة أدخلت في صلب دساتيرها أنّها جزء من الوطن العربيّ، وأنّ شعبها جزء من الأمّة العربيّة بتاريخه وحاضره ومستقبله، وتتطلّع إلى اليوم الذي تجتمع فيه الأمّة العربيّة في دولة واحدة، وأنّها ستعمل

جاهدة على تحقيق تلك الوحدة الشاملة.
بهذه العواطف الجيّاشة، وبظلّ ظروف خاصّة جدًا، قامت الوحدة السوريّة المصريّة، وحدة كاملة شاملة صهرت في بوتقتها سيادة الدولتين العربيّتين لتتّحدا مندمجتين في سيادة واحدة وبظلّ علم واحد.
ولا يخفى على رجال القانون المتضلّعين ورجال الدولة المفكّرين، أنّ مثل هذه الوحدة لا بدّ وأن تهيّأ لها دراسات عميقة في أداة الحكم وسيره وتخطيط شامل محكم لاستقراره ودوامه، لتأتي الوحدة متجانسة متماسكة متينة، فتقدّر لها الديمومة، وتكون نموذجا صالحا ومشوّقا للانضمام إليها.
لكنّ الوقائع أثبتت أنّ أصحاب فكرة تلك الوحدة ومنفّذيها لم يتدبّروها بدراسات دقيقة عميقة، ولا بمخطّطات قوميّة موحّدة ليهيّئوا لها أسباب النجاح والاستقرار، بل اعتمدوا على العواطف الجيّاشة والرغبات الجامحة في سبيل الوصول إلى تلك الوحدة من حيث هي الهدف المنشود، على أن يصار بعدئذ إلى ما يتوجّب عمله في سبيل تنظيم أداة الحكم وتسيير أعمال الدولة.
كما أنّ الكثيرين من رجال الحكم آنئذ لم يكونوا على مستواه، فلم يحالفهم الصواب، فتنافرت القلوب واتّسعت شقّة الخلاف وكان ما كان من انفراط عقد الوحدة وعودة كلّ من القطرين إلى سابق سيادته المستقلّة، على أمل تجاوب آخر في المستقبل على أسس علميّة مدروسة من جميع النواحي وعلى أرفع المستويات.
ويقيني أنّه لا بدّ أن يأتي زمان تتّحد فيه الشعوب العربيّة وتندمج في وحدة سياسيّة متجانسة متماسكة، على أساس من العلم الصحيح والقواعد الحقوقيّة والاقتصاديّة الراسخة، فيكون لهذه الدولة الموحّدة آنئذ شأن عظيم في المحيط الدوليّ العامّ.
ولكن إلى أن نصل إلى ذاك اليوم الموعود، لا بدّ لنا من التفكير مسبقا في موضوع الوحدة، بقصد الإحاطة بكلّ ما يقارب بين الشعوب العربيّة على اختلاف دولها ومؤسّساتها ومرافقها.
يقول علماء الاجتماع، ويؤيّدهم الواقع، إنّ الطاقات البشريّة ذات مظهرين رئيسيّين : مظهر قول، ومظهر عمل أو فعل. ونحن في مجتمعاتنا العربيّة، كثيرا ما ركّزنا منذ أمد بعيد، ولا نزال، على تنمية مظاهر القول على حساب مظاهر العمل، فصارت الكلمة عندنا الشغل الشاغل والنشاط الشامل الذي يستنفد الحيويّة والطاقة.
إنّ التركيز على الوحدة العربيّة يدعو كلّ شعب من شعوب الأمّة العربيّة إلى ضرورة الوصل بين الوحدة العربيّة قولا، وبين ممارسة التوحيد فعلا وعملا على كلّ المستويات، وخلق الانسجام بين مشاعر المواطنين وأفكارهم حتّى تتكوّن لديهم وحدة شخصيّة، ثمّ العمل على حوار علميّ هادئ سليم يزيل ما بينهم من متناقضات، فتصبح شخصيّة المواطنين منسجمة وموحّدة، وذلك ابتداء من الأسرة إلى المدرسة إلى الجامعة، ومن ثمّ إلى المجتمع في مختلف مرافق الدولة.
إنّ الصيغ التوحيديّة كثيرة، ويكفي أن تنهض الدول العربيّة لعقد مؤتمرات واتّفاقات ثنائيّة أو أكثر، أو عن طريق الجامعة العربيّة، وتعمل جادّة على توحيد قوانينها وأنظمتها وتقسيماتها الإداريّة والقضائيّة وغيرها، وتوحيد أسمائها ومصطلحاتها، وتعمل على رفع الحواجز الإداريّة والجمركيّة فيما بينها. وبكلمة القيام بجميع الإجراءات التي من شأنها إيجاد التقارب والتجانس بين جميع أجهزة الدولة ومرافقها ومؤسّساتها.
عندئذ تصبح الشعوب العربيّة متّحدة عمليّا وواقعيّا من جميع الوجوه، ولا يبقى أمام دولها إلاّ المناداة بالوحدة

السياسيّة الشاملة استنادا إلى تلك الأسس العلميّة، وحدة يسودها الوئام والمحبّة والتماسك والمساواة المطلقة بين جميع المواطنين على اختلاف أقطارهم وأمصارهم وأديانهم ومللهم. عرب بقوميّتهم، عرب بوحدتهم، عرب بآمالهم ومستقبلهم. حقّق الله الآمال.

الاشتراكيّة ومفهومها :

كان لرئيس الجمهوريّة العربيّة المتّحدة السيّد جمال عبد الناصر أربع نوّاب رئيس، اثنان سوريّان أحدهما الأستاذ صبري بك العسلي، واثنان مصريّان، ثمّ وزراء مركزيّون مقرّهم القاهرة، ووزراء للإدارة المحلّيّة في دمشق وفي القاهرة.

وقد عقد السيّد الرئيس أوّل اجتماع في القاهرة، ضمّ هؤلاء السادة نوّاب الرئيس والوزراء المركزيّين والوزراء المحلّيّين، وذلك من أجل مناقشة الاشتراكيّة التي كان ينادي بها سيادته، تمهيدا لإقرارها والسير على أسسها.

وروى لي الصديق المحترم نائب الرئيس السيّد صبري العسلي خلاصة ما حصل في تلك الجلسة التي انتهت باستقالته. وأنا أنقل للتاريخ وبكلّ أمانة تلك الوقائع، بعد أن مرّ عليها ما يقارب الثلاثين عاما أو أكثر.

قال الأستاذ الكبير السيّد صبري العسلي إنّه بعد أن تمّ عقد الاجتماع بحضور جميع من ذكروا أعلاه، طرح السيّد الرئيس موضوع الاشتراكيّة التي كان ينادي بها. فأخذ نوّاب الرئيس والوزراء المركزيّون والمحلّيّون يتبارون في تأييد تلك الاشتراكيّة وتحبيذها وتقديم الأسباب الموجبة لتأييدها. كلّ ذلك ونائب الرئيس السيّد صبري العسلي يصغي إلى ما يقال دون أن يتكلّم أو يبدي رأيا. عندئذ توجّه إليه الرئيس وقال : «ما سمعناش رأي الأستاذ صبري». فنهض الأستاذ صبري وأخذ يشرح مفهوم الاشتراكيّة كما يراها هو، وقال : «سيادة الرئيس، أفهم من الاشتراكيّة غير ما قاله الإخوان. أفهم منها العمل على إنقاذ الفقير والبائس، ورفع مستواهما، وجعلهما في بحبوحة من العيش. وكذلك العمل على رفع مستوى الطبقة المتوسّطة، لنجعل طبقات الشعب كلّها متقاربة بعضها من بعض، فيكون الشعب في رخاء والوطن في ازدهار. وإنّي أخالف الإخوان آراءهم فيما ذهبوا إليه من مصادرة أموال الأغنياء وأراضيهم لإعطائها إلى الفقراء. لأنّنا بهذه الطريقة نجعل الأمّة كلّها في حالة فقر، فيتضاءل الإنتاج ويتدهور الاقتصاد، وتصبح الدولة في عوز وتضطرّ للاستقراض. وإنّي أرى أنّها سياسة اقتصاديّة واجتماعيّة خاطئة، ليست في مصلحة الدولة ولا في مصلحة الشعب..»

ويضيف السيّد نائب الرئيس قوله : «لذلك، توجّهت إلى السيّد الرئيس وقلت له : بما أنّني لا أؤيّد سياسة زملائي، فإنّي أعتذر عن التعاون معهم على هذه الأسس، وأرجو أن يأتي يوم تتأكّدون فيه من صحّة الاشتراكيّة كما أفهمها أنا وكما وصفتها، عندئذ نتعاون معا على أساسها.»

ثمّ تقدّم باستقالته من نيابة الرئاسة وترك العمل واستقرّ في منزله إلى أن اختاره الله إلى جواره يوم الأحد في ١٣ نيسان ١٩٧٦ راضيا مرضيّا بعد أن خدم أمّته ووطنه في مختلف الميادين مدّة خمسين سنة ونيّف.

والآن، وبعد أن دار الزمان دورته، تبيّن لكلّ ذي بصيرة أنّ تلك الاشتراكيّة التي نادى بها السيّد رئيس الجمهوريّة آنذاك وأيّده بها معاونوه بالإجماع باستثناء نائب الرئيس السيّد العسلي، كانت اشتراكيّة فاشلة جعلت الفقر شعار المواطن، والإفلاس شعار الدولة. وقد قام بوصفها رئيس جمهوريّة مصر العربيّة السيّد أنور السادات حين قال : «التجربة التي سمّيناها التجربة الاشتراكيّة التي تمّت في الستّينات كانت أيضا تجربة

فاشلة ماية في الماية، انتهت إلى تحكّم واستئثار قلّة بثروة البلاد، استغلّوا الشعب وحصلوا على كلّ شيء، والشعب ما فيش في ايده حاجة أبدا، ولكنّ الاستغلال هذه المرّة كان باسم الشعب وباسم العمّال والفلاّحين. إنّ الستّينات هذه شهدت ضرب كلّ مبادرة فرديّة في مصر، حتّى أصبحت مصر خرابا، البلد كانت خربانة حقيقي، خربانة ولست أبالغ.» (مجلّة الحوادث البيروتيّة، ١٩٧٧/٧/٢٩، ص٣٣)